اليتيمان

فضيلة الشيخ
علي الطنطاوي

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

اليتيم جرح غائر، لكنه لا يمنع من الصعود والسمو، ولعلمـــاء الأمة منذ قديم الزمان معاناة مع اليتم لم تحجبهم عن العلم وطلبـــه والسير في طريقه فإن الله -عز وجل- هو الكافل وهو الرازق وهو الحافظ.

الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- يحكي لنا قصـــة مـــؤثرة فيقول: أحس (ماجد) أنه لم يفهم شيئًا مما يقرأ، وأن عينيه تبصران الحروف وتريان الكلم ولكن عقله لا يدرك معناها، إنه لا يفكر في الدرس، إنه يفكر في هذه المجرمة وما جرت عليه من نكد، وكيف نغصت حياته وحياة أخته المسكينة، وجعلتها جحيمًا مستعرًا، ونظر في (المفكرة) فإذا بينه وبين الامتحان أسبوع واحد، ولابد له مـــن القراءة والاستعداد، فكيف يقرأ، وكيف يستعد؟ وأنى له الهـــدوء والاستقرار في هذا البيت، وهذه المرأة تطارده وتؤذيه، ولا تدعـــه يستريح لحظةً، وإذا هي كفت عنه انصرفت إلى أخته تصب عليها ويلاتها؟... هل يرضى لنفسه أن يرسب في أول سنة مـــن ســـني الثانوية وقد كان (في الابتدائي) المجلّى دائمًا بين رفاقـــه، والأول في صفه؟

وإنه لفي تفكيره، وإذا به يســـمع صـــوت العاصـــفة... وإن العاصفة لتمر بالحقل مرة في الشهر فتكسر الأغصـــان، وتقصـــف الفروع، ثم تجيء الأمطار فتروي الأرض، ثم تطلع الشمس، فتنمي

الغصن الذي انكسر، وتبنت معه غصنًا جديدا، وعاصفة الدار تهب كل ساعة، فتكسر قلبه، وقلب أخته الطفلة ذات السنوات الست، ثم لا تجبر هذا الكسر أبدا... فكانت عاصفة الحقل أرحم وأرق قلبًا وأكثر إنسانية من هذه المرأة التي يروها جميلة حلوة تسبي القلوب... وما هي إلا الحية في لينها ونقشها، وفي سمها، ومكرها.

لقد سمع سبها وشتمها وصوت يدها-شلت يدها-وهي تقـــع على يد الطفلة البريئة، فلم يستطع القعود، ولم يكن يقدر علـــى أن يقوم لحمايتها خوفًا من أبيه، من هذا الرجل الذي حالف امرأتــــه الجديدة، وعاونها على حرب هذه المسكينة، وتجريعها غصص الحياة قبل أن تدري ما الحياة... فوقف ينظر من (الشباك) فـــرأى أختــــه مستندة إلى الجدار تبكي منكسرة حزينة، وكانت مصفرة الوجــــه بالية الثوب، وإلى جانبها أختها الصغرى، طافحة الوجــــه صـــحةً، بارقة العينين ظفرًا وتغلبًا، مزهوة بثيابها الغالية... فشعر بقلبه يثـــب إلى عينيه ويسيل دموعًا، ما ذنب هذه الطفلة حـــتى تســـام هـــذا العذاب؟ أما كانت فرحة أبيه وزينة حياته؟ أما كانت أعز إنســـان عليه؟ فمالها الآن صارت ذليلة بغيضة، لا تسمع في هذا البيـــت إلا السب والانتهار، أما التدليل فلأختها التي تصغر عنها سنتين، الترف لها، كأنما هي البنت المفردة، على حين قد صارت هي خادمـــة في بيت أبيها، بل هي شر من خادمة، فالخادم قد يلقى أناسًـــا لهـــم قلوب، وفي قلوبهم دين، فيعاملونها كأولادهم، وأبوها هي لم يبق في صدره قلب؛ ليكون في قلبه شرف مما دفعه أن يعامل ابنتـــه-ابنـــة صلبه-معاملة الخادمة الذليلة، لقد كتب الله على هذه الطفلـــة أن

تكون يتيمة الأبوين، إذ ماتت أمها فلم يبق لها أم، ومات ضـــمير أبيها فلم يبق لها أب!

وسمع صوت خالته (امرأة الأب تدعى في الشام خالة) تناديها: (تعالي ولك يا خنزيرة – ولك كلمة شامية محرفة عن كلمة ويلك تردد دائمًا).

وكان هذا هو اسمها عندها (الخنزيرة) لم تكن تناديها إلا بـــه، فإذا جاء أبوها فهي البنت، تعالي يا بنت، روحي يا بنت! أما أختها فهي الحبيبة، فين أنت يا حبيبتي؟ تعالي يا عيني!

وعاد الصوت يزمجر في الدار، ألا تسمعين أختك تبكي؟ انظري الذي تريده فهاتيه لها! ألا تجاوبين؟ هل أنت خرساء؟ قولي: مـــاذا تريدين؟

فأجابت المسكينة بصوت خائف: إنها تريد الشوكولاتة...

ولماذا بقيت واقفةً مثل الدبة؟. اذهبي فأعطيها ما تريد!

فوقفت المسكينة، ولم تدر كيف تبين لها أن القطعة الباقية هي لها. لقد اشترى أبوها البارحة كفا من الشوكولاتة، أعطاه لابنتـــه الصغيرة فأكلته، وأختها تنظر إليها، فتضايقت من نظراتها فرمـــت إليها بقطعة منه، كما يرمي الإنسان باللقمة للهرة التي تحدق فيهـــا وهو يأكل، وأخذت المسكينة القطعة فرحة، ولم تجرؤ أن تأكلـــها على اشتهائها إياها، فخبأتها، وجعلت تذهب إليها كل ساعة فتراها وتطمئن عليها، وغلبتها شهوتها مرة فقضمت منها قضمة بطـــرف أسنانها، فرأتها أختها المدللة فبكت طالبة الشكولاتة.

ولك يا شقية فين الشكولاتة؟

فسكتت... ولكنت الصغرى قالت: هناك يا مامـــا عنـــدها، أخذتها الشقية مني!

واستاقت المرأة ابنتها وابنة زوجها، كما يســاق المتــهم إلى التحقيق، فلما ضبطت متلبسة بــالجرم المشــهود، ورأت خالتــها الشكولاتة معها حل البلاء الأعظم.

يا سارقة يا شقية هكذا علمتك أمك... تسرقين ما ليس لك؟

وكان ماجد يحتمل كل شيء إلا الإساءة إلى ذكرى أمه، فلما سمعها تذكرها، لم يتمالك نفسه أن صاح بها:

أنا لا أسمح لك أن تتكلمي عن أمي.

فتشمرت له واستعدت... وكانت تتعمد إذلاله وإيذاءه دائمًا، فكان يحتمل صامتًا، لا يبدو عليه أنه يحفل بها أو يأبه لهــا، فكــان ذلك يغيظها منه، وتتمنى أن تجد سبيلاً إلى شفاء غيظها منه، وهــا هي ذي قد وجدتها..

لا تسمح لي؟ أرجوك يا سعادة البك اسمح لي أنا في عرضك... آه! ألا يكفي أني أتعب وأنصب؛ لأقدم لك طعامك وأقوم علــى خدمتك، وأنت لا تنفع لشيء إلا الكتابة في هذا الدفتر الأســود. لقد ضاع تعبي معك أيها اللئيم، ولكن ليس بعجيب أنــت ابــن أمك... قلت لك كفي عن ذكر أمي، وإلا أسكتك.

واقترب منها، فصرخت الخبيثة، وولولت وأسمعت الجيران...

تريد أن تضربني؟ آه يا خاين، يا منكر الجميل، ولي... يا ناس يا عالم، الحقوني يا أخواتي...

وجمعت الجيران، وتسلل ماجد إلى غرفته، أي إلى الزاوية الـــتي سموها غرفة، وخصوه بها لتتخلص سيدة الدار من رؤيته دائمًـــا في وجهها!

* * *

ودخل الأب المساء وكان عابسًا على عادته باسرًا لا يبتسم في وجود أولاده؛ لئلا يجترئوا عليه، فتسوء تربيتهم، وتفسد أخلاقهم، ولم يكن كذلك قبل، ولكنه استنَّ لنفسه هذه الســـنة مـــن يـــوم حضرت إلى الدار هذه الأفعى، وصبت سمها في جسمه، ووضعت في ذهنه أن ماجدًا وأخته ولدان مدللان، فاسدان لا يصـــلحهما إلا الشدة والقسوة...

وكانت خبيثة إذا دنا موعد رواحه إلى الدار، تخلع ثيابها وتلبس ثيابًا جديدة، كما تخلع عنها ذلك الوجه الشيطاني وتلبس وجها فيه سمات الطهر والطفولة، صنعه لها مكرها وخبثهـــا، ولا تنســـى أن تنظف البنتين وتلبسهما ثيابا متشابهة كيلا يحس الأب بأنها تفضـــل ابنتها على ابنته..

دخل فاستقبلته المحبة الجميلة، والمشـــوقة المخلصـــة، ولكنـــها وضعت في وجهها لونا من الألم البريء تبدو معه كأنها المظلومـــة المسكينة، ولحقته إلى المخدع تساعده على إبدال حلتـــه، هنالـــك

روت له قصة مكذوبة مشوهة، فملأت صدره غضبًا وحنقًا علـــى أولاده، فخرج وهو لا يبصر ما أمامه، ودعا بالبنت فجاءت خائفة تمشي مشية المسوق إلى الموت، ووقفت أمامه كأنها الحمل المهزول بين يدي النمر. فقعد على كرسي عال، كأنه قوس المحكمة وأوقفها أمامه كالمتهم الذي قامت الأدلة على إجرامه، وأفهمها قبح السرقة، وعنفها وزجرها.. وهو ينظر إلى ولده ماجد شزرا، وكانت نظراته متوعدة منذرة بالشر، ولم يسع ماجد السكوت وهو يسمع اتهـــام أخته بالسرقة، وهي بريئة منها، فأقبل على أبيه يريد أن يشرح لـــه الأمر، فتعجل بذلك الشر على نفسه.

انفجر البركان، وزلزلت الدار زلزالها، وأرعد فيها صوت الأب المغضوب المهتاج:

تريد أن تضرب خالتك يا قليل الحياء، يا معدوم التربيـــة، يـــا شقي؟ حسبت أنك إذ بلغت الرابعة عشر قد أصبحت رجلاً؟ وهل يضرب الرجل خالته؟ إنني أكسر يدك يا شقي؟

والله يا بابا مو صحيح...

ووقاحة أيضًا؟ أما بقي عندك أدب أبدًا؟ أتكذب خالتك؟

أنا لا أكذبها، ولكنها تقول أشياء ليست صحيحة.

عند ذلك وثب الأب، وانحط بقوته، وغلظته، وما أترعت بـــه نفسه من مكر زوجته، انحط على الغلام، وأقبل يضـــربه ضـــرب مجنون ذاهب الرشد، ولم يشف غيظ نفسه بضربه؛ فأخذ الـــدفتر الأسود الذي أودعه دروسه كلها، فمزقه تمزيقًا... ثم تركـــه هـــو

وأخته بلا عشاء عقوبة لهما وزجرا...

* * *

تعشى الزوجان وابنتهما، وأويا إلى مخدعهما، والغـــلام جـــاثم مكانه ينظر إلى قطع الدفتر الذي أفنى فيه لياليه، وعـــاف لأجلـــه طعامه ومنامه، والذي وضع فيه نور عينيه، وربيع عمره، وبنى عليه أمله ومستقبله... ثم قام يجمع قطعه كما تجمع الأم أشلاء ولـــدها الذي طوحت به قنبلة... فإذا هو آلاف لا سبيل إلى جمعهـــا، ولا تعود دفترًا يقرأ فيه إلا إذا عادت هذه الأشلاء بشرًا سويًا يـــتكلم ويمشي... فأيقن أنه قد رسب في الامتحان، وقد أضـــاع ســـنته، وعظم عليه الأمر، ولم تعد أعصابه تحتمل هذا الظلم، وأحس كأن الدنيا تدور به وزاغ بصره، وجعلت أيامه تكر راجعة أمام عينيـــه كما يكر فيلم السينما...

رأى ذلك الوجه الحبيب، وجه أمه، وابتسامتها الـــتي كانـــت تنسيه آلام الدنيا، وصدرها الذي كان يفزع إليه مـــن خطـــوب الدهر، رآها في صحتها وشبابها، ورأى البيت وما فيه من الســـلم والهدوء والحب، ورأى أباه أبًا حقيقًيا تفيض به روح الأبوة مـــن عينيه الحانيتين، ويديه الممتلئتين أبدا بالطُّرف واللطـــف، ولســـانه الرطب بكل جميل من القول محبب من الكلام...

ويكر الفيلم، ويرى أمه مريضةً فلا يهتم بمرضها، ويحسبه مرضًا عارضا... ثم يرى الدار والاضطراب ظاهر فيها، والحزن باد علـــى

وجوه أهلها، ويسمع البكاء والنحيب، ويجـــدهم يتعـــدون بـــه، ويخفون النبأ عنه، ولكنه يفهم أن أمه قد ماتت.

ماتت؟ إنها كلمة تمر عليه مرا هينا فلا يأبه به، وكان قد سمـــع بالموت، وقرأ عنه في الكتب، ولكنه لم يره من قريب ولم يـــدخل داره، ولم يذقه في حبيب ولا نسيب، غير أن الأيام ســـرعان مـــا علمته ما هو الموت حين صحا صبيحة الغد على بكاء أخته الحلوة المحببة إلى أمها، والتي كانت محببة تلك الأيام إلى أبيها، ففتح عينيـــه فلم يجد أمه إلى جانبها لترضعها، وتضمها إلى صدرها، واشتد بكاء البنت، وطفق الولد ينادي: ماما... ثم جفا فراشه، وقـــام يبحـــث عنها، فوجد أباه وجمعا من قريباته، يبكون هم أيضا... فسألهم: أين أمي؟ فلم يجيبوه... حين أراد الغدو على المدرسة، فناداها فلم تأت لتعد له حقيبته، وتلبسه ثيابه، ولم تقف لوداعه وراء الباب تقبلـــه، وتوصيه ألا يخاصم أحدا، وألا يلعب في الأزقة، ثم إذا ابتعد عادت تناديه؛ لتكرر تقبيله وتوصيته، وحين عاد من المدرسة فوجد امـــرأةً غريبة ترضع أخته... لماذا ترضعها امرأة غريبة؟ وأين ماما؟!

ويكرر الفيلم، ويرى أباه رفيقا به حانيًا عليه يحاول أن يكون له ولأخته أمًا وأبًا، ولكن هذا الأب تبدل من ذلك اليوم المشؤوم، ورأى ذلك اليوم المشؤوم، يوم قال له أبوه: ستأتيك يا ماجـــد أم جديدة... أم جديدة؟ هذا شيء لم يسمع به، إنه يعرف كيف تجيء أخت جديدة، إن أمه تلدها من بطنها، أما هذه الأم فمن أين تولد؟ وانتظر وجاءت الأم الجديدة، وكانـــت حلـــوةً، ثيابهـــا جميلـــة، وخدودها بلون الشفق، وشفاهها حمر، ليست كشـــفاه النـــاس،

وعجب من لون شفاهها، ولكنه لم يحببها و لم يمل إليها، وكانــت في أيامها الأولى رقيقة لطيفة، كالغرسة الصغيرة، فلما مرت الأيــام واستقرت في الأرض، ومدت فيها جذورها، صارت يابسة كجذع الدوحة، وإن كانت تخدع الرائين بورقها الطري وزهرها الجميل... ولما ولدت هذه البنت انقلبت شيطانة على صورة أفعى مختبئــةً في جلد امرأة جميلة. والعياذ بالله من المــرأة الجميلــة إذا كانــت في حقيقتها شيطانية على صورة أفعى!

وانطمست صور الماضي الحبيب، واضمحل الفيلم، و لم يبق منه إلا هذه الصورة البشعة المقيتة، ورآها تكبر وتعظم حتى أحاطت به، وملأت حياته، وحجبت عنه ضياء الذكرى ونور الأمل... وسمــع قهقهةً فانتفض، وأحس كأن رنينها طلقات (متر اليوز) قد ســقط رصاصه في فؤاده، وكانت قهقهة هذه المرأة التي أخذت مكان أمه يتخللها صليل ضحك أبيه... وأنصت فإذا هو يسمع بكاء خافتًــا حزينًا مستمرًا، فذكر أخته التي نسيها، وذكره جوعه بأن المسكينة قد باتت بلا عشاء، ولعلها قد بقيت بلا غداءٍ أيضًا، فــإن هــذه المجرمة تشغلها النهار كله في خدمتها وخدمة ابنتها، وتقفل دونهــا غرفة الطعام، فلا تعطيها إلا كسرة من الخبز، وتذهب فتطعم ابنتها خفيةً، فإذا جاء الأب العشية، ولبست أمامه وجههــا الــبريء... شكت إليه مرض البنت وضعفها:

مسكينة هذه البنت، إنها لا تتغذى... انظر إلى جســمها، ألا تريها الطبيب؟... ولكن ماذا يصنع لها الطبيب، إنها عنيدة ســيئة الخلق... أدعوها للطعام فلا تأكــل، وعنادهــا سيقضــي علــى

صحتها...

فيناديها أبوها ويقول لها:

ولك يا بنت ما هذا العناد؟ كلي وإلا كسرت رأسك!

فتتقدم لتأكل فترى المرأة... تنظر من وراء أبيها نظرة الوعيد، وترى وجهها قد انقلب حتى صار كوجه الضبع، فتخاف وترتد...

فتقول المرأة لزوجها: ألم أقل لك، إنها عنيدة تحتاج إلى تربية؟

فيهز رأسه، ويكتفي من تربيتها بضربها على وجهها، وشد أذنها، وطردها من الغرفة، ويكون ذلك عشاها كل عشية! تذكر ماجد أخته فقام إليها فرفعها، وضمها إلى صدره.

مالك؟ لماذا تبكين؟ اسكتي يا حبيبتي.

قالت: جوعانة.

جوعانة؟ من أين يأتيها بالطعام؟ وقام يفتش... فأسعده الحظ فوجد باب غرفة الطعام مفتوحًا، وعهده به يقفل دائمًا، ووجد على المائدة بقايا العشاء فحملها إليها، فأكلتها فرحة بها، مقبلة عليها، كأنها لم تكن من قبل الابنة المدللة، المحبوبة، التي لا يرد لها طلبًا، لو طلبت طلبًا، ولا يخيب لها رجاء، وآلمه أن يراها تفرح إذا أكلت بقايا أختها وأبيها، يسرقها لها سرقة من غرفة الطعام، وعادت صور الماضي، فتدفقت على نفسه، وطغت عليها ورجعت صورة أمه فتمثلت له، وسمعها تناديه... لقد تجسم هذا الخيال الذي كان يراه دائمًا ماثلاً في نفسه حتى رده إلى الماضي وأنساه

حاضره... و لم يعد يرى في أخته البنت اليتيمة المظلومة، وإنما يراها الطفلة المحبوبة التي تجد أمًا تعطف عليها، وتحبها...

ونسي دفتره الممزق، ومستقبله الضائع، وحياته المرة، وطفـــق يصغي إلى نداء الماضي في أذنيه.. إلى صوت أمه...

– قومي يا حبيبتي، ألا تسمعين صوت أمك؟ تعالي نروح عند ماما!

فأجفلت البنت وارتاعت؛ لأنها لم تكن تعرف لها أمًا إلا هذه المرأة المجرمة... وخافت منها، وأبت أن تذهب إليها. لقد كان من جناية هذه المرأة أنها شوهت في نفس الطفلة أجمل صـــورة عرفهـــا الإنسان صورة الأم!

– تعالي نروح عند ماما الحلوة: أمك... إنها هنـــاك في محـــل جميل: في الجنة... ألا تسمعين صوتها؟

وحملها بين يديه، وفتح الباب، ومضى بهـــا... يحـــدوه هـــذا الصوت الذي يرن في أذنيه حلوًا عذبًا، إلى المكان الذي فيه أمه!

* * *

وقرأ الناس في الجرائد ضحى الغد أن العسس وجدوا في المقبرة طفلة هزيلة في السادسة من عمرها، وولدًا في الرابعة عشرة، قـــد حملا إلى المستشفى؛ لأن البنت مشرفة على الموت، قد نال منـــها الجوع والبرد والفزع، ولا يمكن أن تنجو إلا بأعجوبة من أعاجيب القدر، أما الغلام فهو يهذي في حمَّته، يذكر الامتحـــان، والـــدفتر الأسود، وأمه التي تناديه، والمرأة التي تشبه الأفعى!